فلسفة الأخلاق الإيمانية ونقد أخلاق العقلانية الحديثة
قراءة في رسائل النور

د. عبد الرحمان العضراوي(*)

إن قراءة الرسائل فعلا عبادة فكرية، فهي من العلوم الإيمانية التي تتجدد الحاجة إليها في كل وقت كحاجتنا إلى الخبز كل يوم(1)، فالمتتبع لرسائل النور يجد المصلح بديع الزمان سعيد النورسي -رحمه الله تعالى- ناهضا بنظرية معرفية إسلامية متكاملة قائمة على تفاعلية إيمان العلم وعلم الإيمان والعمل بالعلم والإيمان، وجوهرها الأخلاق الإسلامية ومكارمها وحقائقها، وفلسفتها مفتاح السعادة الأبدية بخدمة الإيمان، ورؤيتها العالمية والمستقبلية بقدرتها على صناعة الحياة الطيبة وتغيير الإنسانية نحو الأفضل. فبجمعه البنائي بين المعرفة والأخلاق على مستوى الإيمان والعمل أسس فلسفة أخلاقية إيمانية مؤصلة من الكتاب الكريم والسنة النبوية، في ضوئها قدم انتقادات جوهرية لمرجعية العقلانية الأوروبية وتجلياتها الأخلاقية في نموذج مدنيتها. وقوة هذه الفلسفة الأخلاقية الإيمانية النورسية تكمن:

أولا: فيما تجده الأجيال اللاحقة فيها من حكم شرعية بالغة وإرشادات معرفية نورانية تبني عليها فقه الإيمان وأخلاقه وفقه الواقع الإنساني المعيش والرؤية المستقبلية الملائمة للتحديات المتنوعة.

ثانيا: قدرتها على تحقيق وعي إنساني إيماني وأخلاقي وعلمي ومعرفي وتاريخي، يمكن الإنسان من تحمل مسؤولياته وتفعيل قدراته في تغيير ما بالأنفس وإصلاح المجتمعات وتحقيق المصالح الشرعية الكلية والجزئية في وجوده الحياتي.

(*) كلية الآداب – بني ملال- المغرب. abououajih08@yahoo.fr

(١) كليات رسائل النور (الملاحق في فقه دعوة النور) ٧٧/٧. تأليف بديع الزمان النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الثانية بمصر ١٤١٦هـ/١٩٩٢م.

إن فلسفة أخلاق الإيمان عند النورسي باعتبارها حكمة بعدية متشبعة بالروح النقدية والفضيلة العلمية والخلقية تتطلب قراءتها منهجا استقرائيا واستنباطيا وبرهانيا يقف بتأمل وتفكر في الكلمات والشعاعات واللمعات النورسية بغية مقاربة تفاعلات مكوناتها الداخلية ومقاصدها الروحية والحضارية. وهذا ما تحاول هذه المداخلة المختصرة جدا بيان جوانب منه في المحاور الثلاثة الآتية:

المحور الأول: فلسفة الأخلاق الإيمانية ومقاصدها:

يعرف الغزالي الخلق بكونه عبارة " عن هيئة في النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيأة خلقا حسنا، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقا سيئا"[1]. و يمكن الحديث في هذه الهيئة الجامعة للفعل الجميل والقبيح والقدرة عليه والمعرفة به والميل لأحدهما عن جهتين: جهة فطرية وجهة مكتسبة .

فجهة الفطرة تكمن في الإلهام الأولي للنفس الإنسانية ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ٨-١٠). والإسلام خلق فطري عظيم ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (الروم : ٢٩)، وقال تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٤).

وجهة الاكتساب تكمن في تعلم الإنسان وتعرفه على ما يجعله مجتهدا في التزكية أو ينحو نحو التدسية.

فالفطري والمكتسب في الأخلاق لا ينفصلان إيجابا أو سلبا، فالخلق إيجابي حين يكون الفطري جالبا المكتسب نحو التزكية والتطهير، والخلق سلبي حين يعمل المكتسب على التدسية والتضليل قال تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ (الأعلى:١٥)

والإيمان بالله تعالى طاقة مولدة لتزكية العقل من الشبهات وتحلية القلب من الشهوات وذلك لما يتضمنه النظر الإيماني من القواعد العملية الناظمة للفعل الإنساني

---

(١) إحياء علوم الدين ٥٨/٣.تأليف أبي محمد بن محمد الغزالي، طبعة دار الكتب العلمية دون تاريخ.

في التاريخ والمنجية له من الوقوع في الأخطاء المفسدة لاستخلافه في الأرض، فيقول باسم الله ويعطي بباسم الله ويأخذ بباسم الله، ومن تلك القواعد الذكر والشكر والفكر فباسم الله بدءا هي ذكر والحمد لله ختاما هي شكر وما يتوسطهما هو فكر[١]. ويؤكد النورسي فعل الطاقة النورانية للإيمان بمدى ما فيه من سعادة ونعمة، ومدى ما فيه من لذة وراحة، ومدى مافيه من سلامة وأمان [٢]، وبكون ما فيه من راحة كبرى للروح والقلب والعقل مستجلبة بالعمل الشرعي ووظيفة التعبد، فإقامة الصلاة واجتناب الكبائر مثلا وظيفة حقيقية تليق بالإنسان ونتيجة فطرية ملائمة مع خلقته[٣]، وبجعل بيع النفس والمال إلى الله تعالى والعبودية له والجندية في سبيله أربح تجارة وأشرفها[٤]، وبأن الإيمان بالله وباليوم الآخر أثمن مفتاحين يحلان لروح البشر طلسم الكون ولغزه ويفتحان أمامهما باب السعادة والهناء[٥]، وبأنه لولا الدين الحق لتحولت الدنيا إلى سجن رهيب وأن الشخص الملحد هو أشقى المخلوقات وأن الذي يحل طلسم العالم ولغزه المحير وينقذ الروح البشرية من الظلمات إن هو إلا يا الله... لا إله إلا الله[٦]، وأن عقيدة الآخرة هي أس الأساس لحياة الإنسان الاجتماعية والفردية وأساس كمالاته ومثله وسعادته..فليصغ السمع لها علماء الاجتماع والسياسة والأخلاق من المعنيين بشؤون الإنسان واجتماعه[٧].

ومما تقدم يمكن استخلاص المراد بالأخلاق الإيمانية بكونها مجموع الأفعال المحمودة والخيرة الصادرة بيسر وسهولة عن آثار الإيمان في الوعي الإنساني، فالإيمان بالله تعالى معبودا أحدا لا شريك له، لا يتصف بالصحة إلا بشرط الجمع بين العلم بالوحدانية والعمل بمقتضياته على مستوى النفس الإنسانية والاجتماع البشري.

فالأخلاق الإيمانية أفعال جميلة موافقة للفطرة تراعي الأصول الشرعية في جلب المصالح ودفع المفاسد، والموصل إليها حسب النورسي هو التربية الأخلاقية التي يربي

(١) كليات رسائل النور (الكلمات)الكلمات، ٨

(٢) الكلمات، ٩

(٣) الكلمات، ١٨

(٤) الكلمات، ٢١

(٥) الكلمات، ٢١

(٦) الكلمات، ٢٨

(٧) الكلمات، ١٠٤

بها القرآن الكريم تلاميذه المومنين. ولبيان هذه التربية قدم فرقا بين الدرس الذي تلقنه أخلاق القرآن والدرس الذي تلقنه حكمة الفلسفة يقول: " فالتلميذ المخلص للفلسفة فرعون، ولكنه فرعون ذليل إذ يعبد أخس شيء لأجل منفعته ويتخذ كل ما ينفعه ربا له. ثم أن ذلك التلميذ الجاحد متمرد وعنود، ولكنه متمرد مسكين يرضى لنفسه منتهى الذل في سبيل الحصول على لذة، وهو عنود دنئ إذ يتذلل ويخنع لأشخاص هم كالشياطين بل يقبل أقدامهم، ثم أن ذلك التلميذ الملحد مغرور جبار، ولكنه جبار عاجز لما يشعر بمنتهى العجز في ذاته حيث لا يجد في قلبه من يستند إليه، ثم أن ذلك التلميذ نفعي ومصلحي لا يرى إلا ذاته فغاية همته تلبية رغبات النفس والبطن والفرج، وهو دساس مكار يتحرى عن مصالحه الشخصية ضمن مصالح الأمة.

بينما تلميذ القرآن المخلص هو عبد ولكنه عبد عزيز لا يستذل لشيء حتى لأعظم مخلوق، ولا يرضى حتى بالجنة، تلك النعمة العظمى غاية لعبوديته لله. ثم إنه متواضع لين هين ولكنه لا يتذلل لغير فاطره الجليل ولغير أمره وإذنه، ثم أنه فقير وضعيف موقن بفقره وضعفه ولكه مستغن عن كل شيء بما ادخره له مالكه من خزائن لا تنفذ في الآخرة، وهو قوي لاستناده إلى قوة سيده المطلقة. ثم إنه لا يعمل إلا لوجه الله بل لا يسعى إلا ضمن رضاه بلوغا إلى الفضائل ونشرها" [1].

ويزيد في بيان التفرقة بين حكمة الفلسفة وحكمة القرآن من حيث ما تعطيانه من تربية للمجتمع الإنساني بكون "حكمة الفلسفة ترى القوة نقطة الاستناد في الحياة الاجتماعية. وتهدف المنفعة في كل شيء، وتتخذ الصراع دستورا للحياة، وتلتزم بالعنصرية والقومية السلبية رابطة للجماعات.

أما ثمراتها فهي إشباع رغبات الأهواء والميول النفسية التي من شأنها تأجيج جموح النفس وإثارة الهوى.

ومن المعلوم أن شأن القوة هو الاعتداء.. وشأن المنفعة هو التزاحم إذ لا تفي لتغطية حاجات الجميع وتلبية رغباتهم.. وشأن الصراع هو النزاع والجدال وشأن العنصرية هو الاعتداء إذ تكبر بابتلاع غيرها وتتوسع على حساب العناصر الأخرى.

ومن هنا تلمس لم سلبت سعادة البشرية من جراء اللهاث وراء هذه الحكمة.

---

(١) الكلمات، ١٤٤

أما حكمة القرآن الكريم فهي تقبل الحق نقطة استناد في الحياة الاجتماعية بدلا من القوة، وتجعل رضى الله سبحانه ونيل الفضائل هو الغاية بدلا من المنفعة، وتتخذ دستور التعاون أساسا في الحياة بدلا من دستور الصراع، وتلتزم برابطة الدين والصنف والوطن لربط فئات الجماعات بدلا من العنصرية والقومية السلبية، وتجعل غاياتها الحد من تجاوز النفس الأمارة ودفع الروح إلى معالي الأمور وإشباع مشاعرها السامية لسوق الإنسان نحو الكمال والمثل الإنسانية.

إن شان الحق هو الاتفاق.. وشأن الفضيلة هو التساند.. وشأن دستور التعاون هو إغاثة كل للآخر.. وشأن الدين هو الأخوة والتكاثف.. وشأن إلجام النفس وكبح جماحها وإطلاق الروح وحثها نحو الكمال هو سعادة الدارين."[1].

فحكمة القرآن وتربيته تجعل الإنسان في كليته حكيما عدلا شجاعا فقيها، وهذه هي أمهات الأخلاق وأصولها.

فالحكمة: حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختيارية.

والعدل: حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملها على مقتضى الحكمة وتضبطهما في الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها.

والشجاعة: كون قوة الغضب منقادة للعقل في إقدامها وإحجامها.

والفقه: تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع.

وهكذا فمن اعتدال هذه الأصول الموافقة لمنطق الشرع تصدر الأخلاق الجميلة كلها، نحو اعتدال قوة العقل والشجاعة والفقه:

فمن اعتدال خلق قوة العقل يحصل حسن التدبير وجودة الذهن وثقافة الرأي وإصابة الظن والتفطن لدقائق الأعمال وخفايا آفاق النفوس، إذ من الإفراط في هذه القوة يصدر المكر والخداع والدهاء. ومن التفريط فيها يصدر البله والحمق والجنون والغمارة.

ومن اعتدال خلق الشجاعة يصدر الكرم والنجدة والشهامة وكسر النفس والاحتمال والحلم والثبات وكظم الغيظ والوقار والتودد، إذ من الإفراط فيه يصدر التهور والصلف

---

(١) الكلمات، ١٤٥

والبذخ والاستشاطة والتكبر والعجب، ومن التفريط فيه يصدر الجزع والمهانة والذلة والخساسة وصغر النفس.

ومن اعتدال خلق الفقه يصدر السخاء والحياء والصبر والمسامحة والقناعة والورع واللطاف والمسامحة والظرف وقلة الطمع، ومن الإفراط فيه يحصل الحرص والشره والوقاحة والخبث والتبذير، ومن التفريط يحصل التقتير والرياء والهتكة والمجانة والملق والحسد والشماتة والتذلل للأغنياء واستحقار الفقراء.

وقد أشار القرآن الكريم إلى تنزيل هذه الأصول الأخلاقية في أوصاف المؤمنين، فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحجرات:١٥)، فالإيمان بالله وبرسوله من غير ارتياب هو قوة اليقين التي هي ثمرة خلق العقل. والمجاهدة بالمال هو السخاء الراجع لضبط قوة الشهوة. والمجاهدة بالنفس هي الشجاعة الراجعة إلى استعمال قوة الغضب على شرط خلق العقل وحد الاعتدال.

فالأخلاق إذا خرجت عن الاعتدال والتوسط إلى الإفراط أو التفريط انقلبت إلى أخلاق سيئة تجلب المفاسد وتدفع المنافع. والمحمود هو الوسط وهو الفضيلة والطرفان رذيلتان مذمومتان، والعدل إذا فات فليس له طرفا زيادة ونقصان بل له ضد واحد ومقابل هو الجور.

الثاني: الأصول المعرفية ومحاولة في النقد للأخلاق العقلانية الحديثة

تؤخذ معرفة الله تعالى عند النورسي من ثلاثة معرفين أدلاء عظام:أوله: كتاب الكون. ثانيه: هو الآية الكبرى لهذا الكتاب العظيم وهو خاتم ديوان النبوة صلى الله عليه وسلم. ثالثه: القرآن الحكيم.

وأدلة معرفة الله هذه هي مرجع أصول المعرفة في النسق الإسلامي والتي يمكن حصرها في ثلاثة: الوحي والعقل والحس، فالوحي كتاب مسطور والحس كتاب منظور والعقل قارئ لهما كاشف عن حقائقهما بما يثبت مقاصد معرفة الله التوحيدية.

وتنسج الأصول الثلاثة علاقات متكاملة متناسبة، الوحي فيها مهيمن، والعقل فيها مسدد، والحس فيها معضد للعقل في تحسين فهمه للوحي. إن الوحي القرآني " ببياناته القوية النافذة إنما يمزق غطاء الألفة وستار العادة الملقى على موجودات الكون قاطبة

والتي لا تذكر إلا أنها عادية مألوفة مع أنها خوارق قدرة بديعة ومعجزاتها العظيمة فيكشف القرآن بتمزيقه ذلك الغطاء حقائق عجيبة لذوي الشعور ويلفت أنظارهم إلى ما فيها من دروس بليغة للاعتبار والعظة فاتحا كنزا لا يفنى للعلوم أمام العقول"[١].

والبرهان الناطق على تكاملية هذه الأصول وتفاعلية انتظامها في المعرفة الإنسانية هو من اجتمعت على تصديقه الدلائل الآفاقية والدلائل الأنفسية وهو المبلغ الأمين لرسالة الدين الحق الرسول محمد عليه الصلاة والسلام الذي دل على التوحيد وأرشد البشر إليه وجمع أعالي الأخلاق الحميدة وأفاضل جميع السجايا الغالية والخصائل النزيهة في ذاته بالاتفاق فتحولت بنوره " حركات الكائنات وتنوعاتها وتغيراتها من العبثية والتفاهة وملعبة المصادفة إلى مكاتيب ربانية وصحائف آيات تكوينية ومرايا أسماء إلهية حتى ترقى العالم وصار كتاب الحكمة الصمدانية. وانظر إلى الإنسان كيف ترقى من حضيض الحيوانية الذي هوى إليه بعجزه وفقره وبعقله الناقل لأحزان الماضي ومخاوف المستقبل، ترقى إلى أوج الخلافة بتنور ذلك العقل والعجز والفقر .فانظر كيف صارت أسباب سقوطه من عجز وفقر وعقل أسباب صعوده بسبب تنورها بنور هذا الشخص النوراني. فعلى هذا لو لم يوجد هذا الشخص لسقطت الكائنات والإنسان وكل شيء إلى درجة العدم لا قيمة ولا أهمية لها" [٢]، فلا ميزان في الأرض غير ميزان الشريعة إنها رحمة مهداة نزلت من سماء القرآن العظيم.

وتبقى فاعلية أصول المعرفة حاضرة عند النورسي بقوة وهو يقدم موازنة علمية بين المدنية الشرعية والمدنية الحاضرة من جهات شتى فقال:" إن أسس المدنية الحاضرة سلبية، وهي أسس خمسة تدور عليها رحاها:

فنقطة استنادها: القوة بدل الحق، وشأن القوة الاعتداء والتجاوز والتعرض ومن هذا تنشأ الخيانة.

هدفها وقصدها منفعة خسيسة بدل الفضيلة وشأن المنفعة التزاحم والتخاصم ومن هذا تنشأ الجناية

دستورها في الحياة الجدال والخصام بدل التعاون وشأن الخصام التنازع والتدافع ومن هذا تنشأ السفالة.

---

(١) الكلمات، ١٥٠

(٢) الكلمات، ٢٥٧

رابطتها الأساس بين الناس العنصرية التي تنمو على حساب غيرها وتتقوى بابتلاع الآخرين وشأن القومية السلبية والعنصرية التصادم المربع وهو المشاهد ومن هذا ينشأ الدمار والهلاك.

وخامستها هي أن خدمتها الجذابة تشجيع الأهواء والنوازع وتذليل العقبات أمامهما وإشباع الشهوات والرغبات وشأن الأهواء والنوازع دائما مسخ الإنسان وتغيير سيرته فتتغير بدورها الإنسانية وتمسخ مسخا معنويا..

أما أسس مدنية القرآن الكريم فهي إيجابية تدور سعادتها على خمسة أسس إيجابية:

نقطة استنادها الحق بدل القوة، ومن شأن الحق دائما العدالة والتوازن ومن هذا ينشأ السلام ويزول الشقاء.

وهدفها الفضيلة بدل المنفعة، وشأن الفضيلة المحبة والتقارب ومن هذا تنشأ السعادة وتزول العداوة.

دستورها في الحياة التعاون بدل الخصام والقتال وشأن هذا الدستور الاتحاد والتساند اللذان تحيا بهما الجماعات.

وخدمتها للمجتمع بالهدى بدل الأهواء والنوازع وشأن الهدى الارتقاء بالإنسان ورفاهه إلى ما يليق به مع تنوير الروح ومدها بما يلزم.

رابطتها بين المجموعات البشرية رابطة الدين والانتساب الوطني وعلاقة الصنف والمهنة وأخوة الإيمان وشأن هذه الرابطة أخوة خالصة وطرد العنصرية والقومية السلبية. وبهذه المدنية يعم السلام الشامل"[1].

وعلى هذا يؤسس النورسي رفض المسلمين لجوانب من المدنية الحاضرة على اعتبار أنها لا تنفعهم بل تضرهم لأنها كبلتهم بالأغلال، بل صارت سما زعافا للبشرية حينما ألقت ثمانين بالمائة منها في شقاء لتعيش عشرة بالمائة منها في سعادة مزيفة والعشرة الباقية هم حيارى بين هؤلاء وهؤلاء..

إن السعادة الحقيقية هي التي يمنحها" القرآن الكريم النازل رحمة للعالمين لا يقبل إلا طرازا من المدنية التي تمنح السعادة للجميع أو الأكثرية، بينما المدنية الحاضرة قد

---

(١) الكلمات، ٨٥٥.

أطلقت الأهواء والنوازع من عقالها، فالهوى حر طليق طلاقة البهائم، بل أصبح يستبد والشهوة تتحكم حتى جعلنا الحاجات غير الضرورية في حكم الضرورية وهكذا محيت راحة البشرية ..فدفعت المدنية البشرية إلى ممارسة الخداع والانغماس في الحرام ومن هنا فسدت الأخلاق إذ أحاطت المجتمع والبشرية بهالة من الهيبة ووضعت في يدها ثروة الناس فأصبح الفرد فقيرا وفاقدا للأخلاق".[١]

إن النور الإلهي في الشريعة الغراء يمنحها خاصة مميزة وهي الاستقلال الذي يؤدي إلى الاستغناء والتصديق والهيمنة، وهي خاصية لا تسمح أن يتحكم في هذا النور دهاء أية مدنية أرضية لا تنبعث منه.

وقد استخلص النورسي من نظر النور الإلهي الهدى المشرق المنور معالم أخلاقية هي لوامع نورانية نذكر منها الآتي[٢]:

برهانان عظيمان للتوحيد: هذا الكون بذاته برهان عظيم، والفرقان الحكيم برهان ناطق لذلك التوحيد آياته كلها ألسنة صادقة وأشعة ساطعة بالإيمان.

السبب ظاهري بحث: تقتضي عزة الألوهية وعظمتها أن تكون الأسباب الطبيعية أستارا بين يدي قدرته تعالى أمام نظر العقل.

الوجدان يعرف الله بوجده ونشوته، ففي الوجدان جذب وانجذاب مندمجان فيه دوما، والانجذاب إنما يحصل بجذب جاذب.

شهادة الفطرة صادقة، لا كذب في الفطرة فما تقوله صدق.

النبوة ضرورية للبشرية.

الحياة طراز من تجلي الوحدة، الحياة نور الوحدة، فالتوحيد يتجلى بالحياة في هذه الكثرة.

المبطل يأخذ الباطل بظن الحق

نور العقل يشع من القلب، ولا يتنور الفكر من دون ضياء القلب، فلا عقل دون قلب.

---

(١) الكلمات، ٨٥٦.

(٢) الكلمات، ٨٣٨.

ينبغي للقوة أن تخدم الحق، إن لم تمتزج دساتير الحكمة ونواميس الحكومة وقوانين الحق وقواعد القوة بعضها ببعض ولم يستمد كل من الآخر ولم يستند إليه فلا تكون مثمرة ولا مؤثرة لدى جمهور الناس.

السياسة الدائرة على المنفعة وحش رهيب.

رب خير يكون وسيلة لشر.

إن لم تكن للجماعة غاية وهدف فالأنانية تقوى.

الطريق غير المشروع يؤدي إلى خلاف المقصود.

الذين يعزلون الدين عن الحياة يردون المهالك.

السياسة الحاضرة شيطان في عالم الأفكار ينبغي الاستعاذة منها.

الإسلام دين السلام والأمان يرفض النزاع والخصام في الداخل.

العجز والجزع شأن الضعفاء.

الضعف يشجع الخصم.

وتطبيقا لهذه اللوامع عمل على تطبيق خمسة أسس ثابتة لإنقاذ البلاد والحياة الاجتماعية لأبنائها من الفوضى والانقسام وهي[1]: الاحترام المتبادل.الشفقة والرحمة.الابتعاد عن الحرام.الحفاظ على الأمن.نبذ الفوضى والغوغائية والدخول في الطاعة.

الثالث: الآفاق التسديدية والبنائية المستقبلية للأخلاق الإيمانية في زمن العولمة وما بعدها.

يمكن إرجاع ولادة زمن العولمة الغربية- حسب قرائتي لمنهج النورسي- إلى دهاء خرج من الأرض مثلته في القديم روما واليونان وتابعته في مرحلة النهضة الأوروبية ألمانيا وفرنسا وانجلترا وتقوده الآن أمريكا ومن في فلكها من الغربيين. يقول النورسي: " كانت روما القديمة واليونان يملكان دهاء، وهما دهاءان توأمان، ناشيءان من أصل واحد، أحدهما غلب الخيال عليه، والآخر عبد المادة، ولكنهما لم يمتزجا، كما لا يمتزج الدهن بالماء. فحافظ كل منهما على استقلالهما رغم مرور الزمان ورغم سعي المدنية لمزجهما ومحاولة النصرانية لذلك إلا أن جميع المحاولات باءت بالإخفاق.

---

(١) كليات رسائل النور (الشعاعات) ، ٤٠٦.

والآن بدلت تلكما الروحان جسديهما فأصبح الألمان جسد أحدهما والفرنسيون جسد الآخر وكأنهما قد تناسخا منهما.

ولقد أظهر الزمان أن ذينك الدهائين التوأمين قد ردا أسباب المزج بعنف ولم يتصالحا إلى الوقت الحاضر"[١].

ودون الدخول في تحليل مفهوم العولمة وعلاقته بالكونية والعالمية ومقتضياته الحضارية التاريخية والمعاصرة، فإن المقصود بزمن العولمة المعيش نتاج تواصل العطاء الغربي المبدع في العلم والتكنولوجيا والسياسة والاقتصاد والثقافة والآداب، والذي مكن الغربيين ونموذجهم الليبرالي الأمريكي الذي قضى على النموذج الشيوعي السوفياتي من الهيمنة والغزو لكل المجتمعات البشرية، فاستفرد النموذج الأمريكي بالسيطرة اقتصاديا وسياسيا وتكنلوجيا وثقافيا وأخلاقيا على أمم الغرب كلها ودول الشرق من جاكرتا إلى طنجة إلى برازيليا.

ومجمل أخلاق العولمة يفرضها منطق السوق الاستهلاكية وتصدير السلع ونقل رؤوس الأموال واصطياد الربح المضمون بأي وسيلة، ومنطق ثورة الاتصالات واختراقات مسافات الزمن وجيوستراتيجيات المجالات الحيوية والأبعاد الجغرافية، وهو منطق مادي ينظر بعين الازدراء للأخلاق الدينية السليمة. وذلك أن أخلاق العولمة مرتبطة بتكاثر الأموال لا بتزكية الإنسان في رحاب الإيمان، وقائمة على الظلم والطغيان لا على العدل والحق، ومعتمدة على الإباحية المطلقة وشهوة الاستثمار لا على الكرامة والاعتدال في الإنفاق.

فالمنطلق الأساس لأخلاق العولمة يكمن في:

العناية بالأفكار المادية الرافضة للقيم والمبادئ الحقة المنبعثة من المنهج الإيماني الحق

تفكيك الخصوصيات الثقافية الحضارية للأمم المغلوبة وتركيبها بثقافة المنظومة الغربية وخصوصا الأمريكية.

---

(١) الكلمات، ٨٥٧.

التفكير في القضايا الإنسانية من رؤية المصالح الواقعية والمنافع العملية المغلفة بازدواجية المعايير وقلب مفاهيمي للحق والصواب والخير والشر.

وهذه المنطلقات الثلاث تكشف الوجه الحقيقي للعولمة الغربية وأن مناداتها بتحديث الأمم وإصلاح المجتمعات ودمقرطتها والسير بها إلى التطور والرقي هو مجرد غطاء إيديولوجي تخفي به مقاصدها الاستعمارية الجديدة بمعرفة السلطة وسلطة المعرفة.

ومن هنا أصبح في الفكر الإسلامي المعاصر سؤال الحديث عن أخلاق الإيمان ضرورة شرعية وعقلية وواقعية، وصار تحديد الهوية الإسلامية مطلب حضاري، وإبراز هندسة جديدة للمعرفة الأخلاقية الإسلامية ممانعة لتفكيك منظومة القيم التي تقودها نظرات مؤتمرات قضايا السكان والتنمية وحقوق الإنسان والثقافة الكونية والمواثيق الدولية.

وفي سياق تقوية أخلاق الإيمان وبيان منظومة القيم الإسلامية وحماية الخصوصية الحضارية للشعوب الإسلامية تدخل إشراقات النورسي ولوامعه وإضاءاته في مجال الهدي القرآني النازل من السماء لإرشاد البشرية نحو النور الساطع من أخلاقه وأحكامه ومعارفه.

لا ينكر النورسي ما في مدنية الدهاء من محاسن كثيرة إلا أنها في نظره " ليست من صنع هذا العصر بل هي نتاج العالم وملك الجميع إذ نشأت بتلاحق الأفكار وتلاقحها وحث الشرائع السماوية ولا سيما الشريعة المحمدية وحاجة الفطرة البشرية فهي بضاعة نشأت من الانقلاب الذي أحدثه الإسلام، لذا لا يتملكها أحد من الناس"[1].

والآفاق التسديدية في زمن العولمة من وجهة نظر النورسي تستخلص من المقارنة الآتية: "فلئن كان التوأمان الصديقان الأخوان الرفيقان في الرقي قد تصارعا ولم يتصالحا فكيف يمتزج هدى القرآن وهو من اصل مغاير ومعدن آخر ومطلع مختلف مع دهاء روما وفلسفتها فذلك الدهاء وهذا الهدى مختلفان في المنشأ.

الهدى نزل من السماء والدهاء خرج من الأرض.

---

(١) الكلمات، ٨٥٩.

الهدى فعال في القلب يدفع الدماغ إلى العمل والنشاط بينما الدهاء فعال في الدماغ ويعكر صفو القلي ويكدره.

الهدى ينور الروح حتى تثمر حياتها سنابل فتنور الطبيعة المظلمة وتتوجه الاستعدادات نحو الكمال ولكن يجعل النفس الجسمانية خادمة مطيعة فيضع في سيماء الإنسان الساعي صورة الملك.

أما الدهاء فيتوجه مقدما إلى النفس والجسم ويخوض في الطبيعة ويجعل النفس المادية مزرعة لإنماء الاستعداد النفساني وترعرعه، بينما يجعل الروح خادمة حتى تتيبس بذورها وحباتها فيضيع في سيماء صورة الشيطان.

الهدى يمنح السعادة لحياة الإنسان في الدارين وينشر فيهما النور والضياء ويدفع الإنسان إلى الرقي أما الدهاء الأعور كالدجال فيفهم الحياة أنها دار واحدة فحسب لذا يدفع الإنسان ليكون عبد المادة متهالكا على الدنيا حتى يجعله وحشا مفترسا.

نعم إن الدهاء يعبد الطبيعة الصماء ويطيع القوة العمياء. أما الهدى فإنه يعرف الصنعة المالكة للشعور ويقدر القدرة الحكيمة.

الدهاء يسدل على الأرض ستار الكفران والعدى ينشر عليها نور الشكر والامتنان. ومن هذا السر فالدهاء أعمى أصم والهدى سميع بصير

إذ في نظر الدهاء لا مالك للنعم المبثوثة على الأرض ولا مولى يرعاها فيغتصبها دون شكران إذ الاقتناص من الطبيعة يولد شعورا حيوانيا.

أما في نظر الهدى فإن النعم المبسوطة على الأرض هي ثمرات الرحمة الإلهية وتحت كل منها يد المحسن الكريم مما يحض على تقبيل تلك اليد بالشكر والتعظيم."[1]

فالنورسي في هذه المقارنة العلمية يقدم نقدا للعقلانية الحديثة واستلابها من الفلسفة المادية والعقلانية الطبيعية من حيث إن بنية الفكر المادي والطبيعي لا يمكن أن تخدم التقدم الحقيقي للبشرية. ويبرز بوضوح مرجعية أخلاق الإيمان في العقيدة، ويثبت مقصدها الكلي في صلاح الإنسان وتزكية الأنفس وبناء الأنظمة والمؤسسات

(١) الكلمات، ٨٥٨.

على قواعد أخلاق العدالة والصدق وصون القيم الإنسانية. وقد استنبط من هذه المقارنة سنة تاريخية أخلاقية فسر بها تراجع المسلمين وتخلفهم عن الأوروبيين يقول: " لقد تعلمت الدروس في مدرسة الحياة الاجتماعية البشرية وعلمت في هذا الزمان والمكان أن هناك ستة أمراض جعلتنا نقف على أعتاب القرون الوسطى في الوقت الذي طار فيه الأجانب وخاصة الأوروبيين نحو المستقبل، وتلك الأمراض هي:

أولا: حياة اليأس الذي يجد فينا أسبابه وبعثه.

ثانيا: موت الصدق في حياتنا الاجتماعية والسياسية.

ثالثا: حب العداوة.

رابعا: الجهل بالروابط النورانية التي تربط المومنين بعضهم ببعض.

خامسا: سريان الاستبداد سريان الأمراض المعدية المتنوعة.

سادسا: حصر الهمة في المنفعة الشخصية."[١]

والمقصد من إبراز هذه الأمراض الستة هو سوق المسلمين بشوق وجداني إلى كعبة الكمالات بطريق الرقي وذلك بتحريك السلسلة النورانية المقوية للرقي المادي الطبيعي الذي هو سبب عظيم لإعلاء كلمة الله في هذا الزمان.

وتبدو آفاق التسديد والبناء الأخلاقي القويم في كلماته الست[٢]، المعالجة لتلك الأمراض الفتاكة في الاجتماع الإنساني كله وليس في المجتمع المسلم فقط، وهي الكلمات التي استقاها من فيض صيدلية القرآن الحكيم الذي هو بمثابة كلية الطب في حياتنا الاجتماعية - حسب تعبيره-.

الكلمة الأولى: الأمل بمعنى شدة الاعتماد على الرحمة الإلهية والثقة بها، وبناء على هذا يجزم بما يسمع الدنيا كلها وأنف اليأس والقنوط راغم أن المستقبل سيكون للإسلام وللإسلام وحده وأن الحكم لن يكون إلا لحقائق القرآن والإيمان، لذا فعلينا الرضى بالقدر الإلهي وبما قسمه الله لنا إذ لنا مستقبل زاهر وللأجانب ماض مشوش مختلط. ويحصي ثمانية موانع حالت دون استيلاء حقائق الإيمان على الزمان الماضي استيلاء تاما وهي:جهل الأجانب. وتأخرهم عن عصرهم أي بعدهم عن الحضارة. وتعصبهم لدينهم. تحكم القسسين وسيطرة الزعماء الروحانيين على أفكار الناس

(١) كليات رسائل النور (صيقل الإسلام) ، ٤٩١.

(٢) صيقل الإسلام ، ٤٩٢-٥١٤.

وأذهانهم.وتقليد الأجانب لأولئك القسيسين تقليدا أعمى. تفشي روح الاستبداد فينا. انتشار الأخلاق الذميمة النابعة من مجافاة الشريعة ومخالفتها. توهم وجود نوع من التناقض بين مسائل من العلم الحديث والمعنى الظاهري لحقائق الإسلام هذا التوهم سبب إلى حد ما وقف استيلاء الحقائق الإسلامية في الماضي.

فالموانع الثلاثة بدأت تزول بفضل التقدم العلمي ومحاسن المدنية.

والمانع الرابع والخامس يأخذان بالزوال بعد انتشار حرية الفكر وميل النوع البشري إلى البحث عن الحقائق.

والمانعان السادس والسابع سيزولان بزوال قوة لاستبداد الفردي والجماعي، وبفوران الحمية الإسلامية والوقوف على النتائج الوخيمة للأخلاق الذميمة.

والثامن سينهار ببيان ما ظنه أهل العلم مدار نقد في جمل القرآن وكلماته وأن في كل منها من الحقائق السامية الرفيعة ما لا تطاوله يد العلم.

ومن رؤيته المستقبلية أن العلم سوف يتجهز والمعرفة الحقيقية ومحاسن المدنية بوسائل وأعتدة كاملة فتغلب على الموانع الثمانية المذكورة وتقضي عليها وذلك ببعثها روح التحري عن الحقائق والإنصاف والمحبة الإنسانية وإرسالها إلى جبهات محاربة تلك الأعداء الثمانية.

وقدرة حقائق الإسلام على محاربة هذه الموانع وغيرها يظهر استعداده المعنوي للرقي المادي وسيادته في المستقبل وذلك أن الشخصية المعنوية للعالم الإسلامي قد امتزجت خمس قوى لا تقهر وهي في منتهى الرسوخ والمتانة[1]:

القوة الأولى: الحقيقة الإسلامية التي هي أستاذ جميع الكمالات والمثل.

القوة الثانية: الحاجة الملحة: التي هي الأستاذ الحقيقي للمدنية والصناعات والمجهزة بالوسائل والمبادئ الكاملة.

القوة الثالثة: الحرية الشرعية: التي ترشد البشرية إلى سبل التسابق والمنافسة الحقة نحو المعالي والمقاصد السامية والتي تمزق أنواع الاستبداد وتشتتها والتي تهيج

---

(١) صيقل الإسلام ، ٤٩٩.

المشاعر الرفيعة لدى الإنسان تلك المشاعر المجهزة بأنماط من الأحاسيس كالمنافسة والغبطة والتيقظ التام والميل إلى التجدد والنزوع إلى التحضر.

القوة الرابعة: الشهامة الإيمانية المجهزة بالشفقة والرأفة أي أن لا يرضى الذل لنفسه أمام الظالمين زلا يلحقه بالمظلومين. وبعبارة أخرى عدم مداهنة المستبدين وعدم التحكم بالمساكين أو التكبر عليهم وهذا أساس من أسس الحرية الشرعية.

القوة الخامسة: العزة الإسلامية التي تعلن إعلاء كلمة الله. وفي زماننا هذا يتوقف إعلاء كلمة الله على التقدم المادي والدخول في مضمار المدنية الحقيقية. ولا ريب أن شخصية العالم الإسلامي المعنوية سوف تدرك وتحقق في المستقبل تحقيقا تاما ما يتطلبه الإيمان من الحفاظ على عزة الإسلام.

الكلمة الثانية: اليأس داء قاتل، فهذا اليأس هو الذي أوقعنا صرعى كالأموات حتى تمكنت دولة غربية لا يبلغ تعدادها مليوني نسمة من التحكم في دولة شرقية مسلمة ذات العشرين نسمة فتستعمرها وتسخرها في خدمتها.. وهذا اليأس هو الذي قتل فينا الخصال الحميدة وصرف أنظارنا عن النفع العام وحصرها في المنافع الشخصية.. وهذا اليأس هو الذي أمات فينا الروح المعنوية التي بها استطاع المسلمون أن يبسطوا سلطانهم على مشارق الأرض ومغاربها بقوة ضئيلة، ولكن ما إن ماتت تلك القوة المعنوية الخارقة باليأس حتى تمكن الأجانب الظلمة منذ أربعة قرون أن يتحكموا في ثلاثمائة مليون نسمة ويكبلوهم بالأغلال.

الكلمة الثالثة: الصدق أساس الإسلام، الصدق أس أساس الإسلام وواسطة العقد في سجاياه الرفيعة ومزاج مشاعره العلوية. فعلينا إذا أن نحيي الصدق الذي هو حجر الزاوية في حياتنا الاجتماعية في نفوسنا ونداوي به أمراضنا المعنوية.

أجل إن الصدق هو عقدة الحياة في حياة الإسلام الاجتماعية، أما الرياء فهو نوع من الكذب الفعلي، وأما المداهنة والتصنع فهو كذب دنيء مرذول، أما النفاق فهو كذب ضار جدا، والكذب نفسه إنما هو افتراء على قدرة الصانع الجليل.. لا نجاة إلا بالصدق، فالصدق هو العروة الوثقى..

الكلمة الرابعة: المحبة: إن أجدر شيء بالمحبة هو المحبة نفسها، وأجدر صفة بالخصومة هي الخصومة نفسها. أي أن صفة المحبة التي هي ضمان الحياة الاجتماعية

البشرية والتي تدفع إلى تحقق السعادة هي أليق للمحبة... وأسباب المحبة هي الإيمان والإسلام والإنسانية وأمثالها من السلاسل النورانية المتينة والحصون المعنوية المنيعة. إذ الود والمحبة والأخوة هي من طباع الإسلام وروابطه...

الكلمة الخامسة: تضاعف السيئات والحسنات، إن سيئة امرئ واحد في هذا الزمان لا تبقى على حالها سيئة واحدة، وإنما قد تكبر وتسري حتى تصبح مائة سيئة. كما أن حسنة واحدة أيضا لا تبقى على حالها حسنة واحدة بل قد تتضاعف إلى الآلاف، وحكمة هذا أن وسره هو أن الحرية الشرعية والشورى المشروعة قد أظهرتا سيادة أمتنا الحقيقية. فحسنات الأمة تتضاعف حين يكون التفكير بمصلحة الأمة، وتتضاعف السيئات حين يكون التفكير بالمصلحة الشخصية دون مبالاة بمصلحة الأمة..

الكلمة السادسة: الشورى، باعتبارها مفتاح سعادة المسلمين في حياتهم الاجتماعية، فالآية الكريمة تأمرنا باتخاذ الشورى في جميع أمورنا يقول سبحانه ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ (الشورى : ٣٨). أجل فكما أن تلاحق الأفكار بين الجنس البشري إنما هو شورى على مر العصور بوساطة التاريخ حتى غدا مدار رقي البشرية وأساس علومها فإن سبب تخلف القارة الكبرى التي هي آسيا عن ركب الحضارة إنما هو لعدم قيامها بتلك الشورى الحقيقية.

إن مفتاح قارة آسيا وكشاف مستقبلها إنما هو الشورى، أي كما أن الأفراد يتشاورون فيما بينهم، كذلك ينبغي أن تسلك الطوائف والأقاليم المسلك نفسه فتتشاور فيما بينها. إن فك أنواع القيود التي كبلت ثلاثمائة بل أربعة مليون مسلم ورفع أنواع الاستبداد عنهم إنما يكون بالشورى والحرية الشرعية النابعة من الشهامة الإسلامية والشفقة الإيمانية، تلك الحرية الشرعية التي تتزين بالآداب الشرعية وتنبذ سيئات المدنية الغربية.

إن الحرية الشرعية النابعة من الإيمان إنما تأمر بأساسين:

الأول: أن لا يذل المسلم ولا يتذلل، من كان عبدا لله فلا يكون عبدا للعباد.

الثاني: أن لا يجعل بعضكم أربابا من دون الله، إذ من لا يعرف الله حق معرفته يتوهم نوعا من الربوبية لكل شيء، في كل حسب نسبته فيسلطه على نفسه.

إن الحرية الشرعية عطية الرحمن وتجل من تجليات الخالق الرحمن الرحيم وهي خاصة من خصائص الإيمان.

فالسياق التاريخي لهذه الكلمات يكشف مدى الوعي الإسلامي الحق الذي يحمله النورسي انطلاقا من الدفاع عن الاتحاد الإسلامي وإدراكه لما يفعله الأجانب من سلب أموال المسلمين وأوطانهم وأخلاقهم الرفيعة والسجايا الحميدة التي يترابط بها المجتمع المسلم، وارتكازا إلى أن حقيقة الإسلام أسمى من كل سياسة بل جميع أصناف السياسة وأشكالها يمكن أن تسير في ركاب الإسلام وتخدمه وتعمل له.

ولو أننا أظهرنا في زمن ما بعد الحداثة والعولمة المعاصرة بأفعالنا وسلوكنا مكارم أخلاق الإسلام وكمال حقائق الإيمان كما تقدمها الفلسفة الإيمانية لرسائل النور لتفهم أتباع الأديان الأخرى الإسلام ولتعرفت دول العالم وقاراته على رحمة الإسلام وسماحته وقصده في تحقيق الأمن العالمي والتحالف الحضاري والتكريم الإنساني الحقيقي. إن البشرية التي أخذت تصحو وتتيقظ بنتائج العلوم والفنون الحديثة أدركت كنه الإنسانية وماهيتها وتيقنت أنه لا يمكنها أن تعيش هملا بغير دين بل حتى أشد الناس إلحادا وتنكرا للدين مضطر إلى أن يلجأ إلى الدين في آخر المطاف[1]. فرسائل النور في نظرتها للحياة الاجتماعية والسياسية والمعرفية قد ظلت تثبت أخلاق الإيمان وتحكم فلسفتها العملية وتجتهد في وضع آليات تنزيلها في الواقع قصد تحقيق أمن الأمة وسلامتها وتقدمها الدنيوي والأخروي وذلك: بتسديدها نحو أخلاق النهضة والرقي والتنمية المستدامة وإزالة كل أخلاق الجمود والضعف والتقليد. وتأنيسها بأخلاق قوة الإيمان وإيمان القوة والإخلاص والأمانة والتمكين والاستخلاف.

مراجع المداخلة:

القرآن العظيم برواية ورش.

إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي طبعة دار الكتب العلمية دون تاريخ.

كليات رسائل النور لبديع الزمان سعيد النورسي ترجمة إحسان قاسم الصالحي، طبعة مصر ١٤١٢/١٩٩٢.

(١) صيقل الإسلام، ٤٩٤.